الثورة
الخميس ١٨ صفر ١٤٢٥هـ الموافق ٨ أبريل ٢٠٠٤م العدد (١٤٣٩٣)

ذاكرة خوف مدى

▫ - الضرب يخلق خبرة سيئة ويق
▫ - أستاذ علم نفس: بعض المعلمين أصبح

دراسات تحذر من اعتبار العصا والإهانة

تحقيق/
محمد
الظاهري:

لا يوجد مبرر لضرب طفل في العاشرة، وما سيقوله معلمون يقومون بذلك ليس أكثر من "ستار يداورن خلفه فشلهم" حسب مختصين يعدون استخدام العقاب الجسدي في العملية التربوية الحماقة التي ما زلنا نرتكبها، إن أحد أساتذة علم النفس المتخصصين ينصح أن يخضع معلمو المراحل الأساسية للعلاج، وقال: "أصبح الأمر لدى البعض مرضاً حقيقياً".

ظهيرة ذات يوم، في وسيلة نقل عامة فرك طفل في العاشرة يده يتحسس ألم البارحة وهو يخبر زميله المجاور: "أمس ضربني الأستاذ خمس جلعات لوما ما حسيت بيدي".

كانا في طريقهما إلى المدرسة، مثل زهرتين صغيرتين ثبت على ظهريهما حقيبتان، ثيابهما نظيفة، وشعر رأسيهما مصفف بعناية، ومكاشفتهما متصلة كأنما قررا التعاون على مخاوفهم بالبوح بدلا من قهر الصمت، فشرعا يعدا كم جلدة عبرت بقسوة على أناملهم الصغيرة.

هكذا أصبح الطريق إلى المدرسة.. ذاكرة خوف محشوة بالمعلمين. وتذكرت شقيقي الأصغر، كان يتحمس لمدرسته ولا يكاد يهدأ، حتى إذا تراءى له بابها صرخ مرعوبا.

بسذاجة سألت الصغيرين: "هل يضربكم المعلمون؟"، لتأتيني الإجابة سؤالا خائفا يلقيه ذو الشعر الأشقر: "هل أنت أستاذ؟".

ضحكت من سؤاله، وربما من خوفه، وودعتهما فيما أحاول تخيل ما يشعران به.

قال الدكتور عبدالحافظ الخامري وهو أحد أساتذة علم النفس في جامعة صنعاء ورئيس قسم علم النفس سابقا في كلية الآداب: "الضرب يخلق خبرة غير سارة.. خبرة سيئة ومؤلمة".

من وجهة نظرة، حين يخرج الطفل من منزله الذي يشعره فيه بالأمان ويلقى فيه الود والحب إلى مدرسة يتعرض فيها للضرب تقرن هذه الخبرة بها، وقال: "يصبح الذهاب إلى المدرسة هو الذهاب إلى الألم، وتصبح المدرسة هي الألم".

"الجلد الأعلى"

ليس بمقدوركم الذهاب إلى الجحيم كل يوم، لكن بمقدوركم إجبار الصغار على ذلك. كان الآباء يحرصون دائما كلما وجدوا معلما على إخباره: "الجلد الأعلى لك"، لكن العلماء أصبحوا متأكدين من أضرار العقاب. فهو يجعلنا نسلك طريقا غير التي يمر بها المعلم، ونتحاشى الحي الذي يقطنه وكأنه غول.

إن مفردة "العقاب" عامة، بمقدوركم مراجعة الدراسات الخاصة لتتأكدوا أن الإنسان مخلوق عنيد بالفطرة يرفض لغة الإجبار، واحد من المقالات بهذا الصدد رسم صورة جميلة: "لم تكن الشعوب لتثور" لو فطرت على الاستسلام.

(الجلد الأعلى لك) ليست بريئة من تعثرنا، فحين يصبح الضرب لغة تعليم، يغدو العلم شريعة مرفوضة، وحسب دراسات عالمية متعددة: "الوسائل التعليمية السيئة سبب رئيسي لتدني مستويات التحصيل العلمي". من منكم كان يجرؤ على المرور من طريق يصادف فيه معلما. اليوم أصبح الزحام يساعد الطلاب على الفرار من المدرسة.

حين حصل مركز أبحاث عالمي على نتائج تؤكد بأن معدل الذكاء ينخفض في سن التعليم أمكن المختصون مراجعة كتبهم، واكتشفوا أن أفضل وسائل التعلم هي البحث عن إجابات. ما يجري أن أسئلة الأطفال تقمع فيتوقفون عن التفكير.

مختصون...

حتى لا نستمر في خلق جيل ممتلئ بالخوف ومشحون بكراهية التعلم، علينا التخلي عن وسائلنا السيئة، فكما يؤكد مدير مركز الإرشاد التربوي والنفسي في جامعة صنعاء الدكتور أحمد الجرموزي أن "تربية الطفل السليمة تنهض أساسا على غرس القيم الصالحة ووجود القدوة الحسنة وليس الإرهاب والإذلال".

إنه متأكد بأن الضرب هو "الاستثناء وليس القاعدة" في العملية التربوية. وقال: "على المربي الجيد أن يؤمن بذلك". فالعقاب "إيذاء نفسي وجسدي"، ويذكرنا بقوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم" (النساء:١١)، حين يكون الضرب هو ركيزة تربوية، يصبح العنف أخلاقا، هذه الحقيقة أرعبت المختصين وحفزت العلماء للبحث عن وسائل توافق فطرة الناس التي خلقوا عليها ولا تعاديها.

إن نتائج دراساتهم الأولية كانت مخيفة.

كان العقاب أكثر مدعاة لتوليد النفور والرفض، وعند الشعور بالعجز عن الرفض يتولد الخوف، فيما بدت نتائج الثواب أفضل، لكنه أيضا لا يحقق المأمول وحده، وتبين للباحثين أيضا بأن الأطفال الذين لا يتعرضون للضرب لن يكونوا أسوياء بالضرورة حين يفتقرون إلى القدوة الحسنة.

إن ما توصلوا إليه لم يخلق في يوم وليلة، لكنه مثالي، ويوضح الجرموزي: "ينبغي أن نعرف بأن تربية الطفل تنهض أساسا على التربية التي تتجلى في غرس القيم الصالحة"، إن تعليم الطفل العادات الحسنة والمهارات المفيدة أكثر فائدة من إرهابه، وقال: "يربي الأب أو الأم طفلهما بالقدوة الحسنة".

مخاطر الضرب، خصوصا على الأطفال، ونتائجه السيئة جعلت المختصين بعد تثبت من نتائجهم يضعونه في نهاية سلم وسائل التربية وبشكل استثنائي لا يخلو من تأكيد على مساوئ اللجوء إليه، لقد بدأ المختصون وهم يتحدثون إلى (الثورة) أقرب إلى تحريمه.

قال الدكتور الجرموزي: "لا بد أن يدرك المربي في البيت والمدرسة أن الطفل في هذه المرحلة كثير الأخطاء، واستخدام العقاب عند كل خطأ مبالغة مفرطة".

لديه سند ديني: فقد جاء في الأثر: "لاعب ابنك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً". إن هذا يؤكد أيضا ضرورة التدرج في العملية التربوية، وهو ما تجمع عليه مناهج التربية الحديثة، وأضاف: "من الخطأ الفادح أن تكون العصا هي الركيزة الأولى في عملية إعداد الطفل للحياة، أو نبدأ التربية بالإهانة والإذلال".

تدرج العقاب

الضرب مفسدة، والدلال مفسدة أيضا، وبين الأمرين يجمع العلماء على أهمية التدرج في تقويم السلوك، عبر خمس مراحل يتم المرور بها هي: "تحديد السلوك الخاطئ" أولا، ثم إيقاف هذا السلوك" لتحقيق القدوة الحسنة، تعليم السلوك الصحيح، ثم تعزيزه بالنصح والإرشاد والتشجيع، والتعاقد مع الطفل على التزامه.

بشكل قاطع يرى الجرموزي أن هذه الخطوات تتحقق بأن يبدأ المربي "بالنصيحة، فاللوم، فالتقريع، فالتوبيخ، فالتعنيف، فالإنذار بالعقوبة، ثم التلويح بها، ثم العقاب".

والعقاب هنا مشروط، وحسب إجماع المختصين الذين سألناهم لا بد ألا يوقع المربي الضرب إلا على خطأ تم التنبيه إليه أكثر من مرة، ثم تنبيه مصحوب بتهديد بالعقوبة، وبيان نوعها (جسمية أو معنوية)، وأن يكون الضرب على قدر الذنب لا للتشفي، وأن يدرك المربي أن الذي أمامه طفل، وليس رجلا كبيرا، وتجنب الضرب في الأماكن الحساسة.

وبشكل خاص لا يكون الطفل بحاجة إلى العقاب قدر حاجته إلى الكلمة الحلوة، والابتسامة الصافية اللتين تحملان معاني الحب واللين والرحمة والحنان، ويضيف الدكتور الجرموزي: "إن هذه الوسائل أكثر تأثيرا. ويشير: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من كان له صبي فليتصابى له"، وقوله: "الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم".

عملية مكروهة

يعتبر أستاذ علم النفس المساعد في جامعة صنعاء الدكتور عبدالحافظ الخامري، أن اللجوء لعقوبة الضرب كما قال له "شروط كثيرة تجعل منه عملية مكروهة جملة وتفصيلا". عملية مؤلمة لأي كان، وهي بالنسبة للطفل أشد إيلاما "لا سيما إذا رافقتها مشاعر معينة وتعبيرات وألفاظ غاضبة تنم عن السخط والنبذ والتبخيس".

من وسائل العقاب المجدية في العملية التربوية من وجهة نظر المختصين هي "عكس العقاب"، وقال الخامري: "من الخطأ أن تقرر العقاب قبل تجربة الثوابين".

عبارة موجزة، لكنها عميقة جدا، المختصون يرون أن وسائل أخرى أكثر جدوى مثل: "تعزيز الجوانب الإيجابية وعدم الإلتفات للنواحي السلبية مثل الإشادة بالطالب الذي يؤدي واجباته ويرتب أوضاعه ويجيب الأسئلة.

وقال الدكتور الخامري: "يمكن مقاطعة الطفل، حرمانه من المصروف، حرمانه من اللعب"، ويرى أن اللجوء إلى إقناع الطفل والتفاهم معه عن الذنب وأساليب تركه تكون أكثر جدوى وأبعد أثرا. وأضاف: "المربي الحكيم يلجأ إلى الأساليب الإيجابية أفضل من السلبية"، ويرى أن اللجوء إلى العقاب قبل الثواب دليل على افتقار المربي لأساليب التربية الصحيحة وفشله في التعامل مع الأمور بحكمة".

الدكتور الخامري يؤكد أن العاملين في قطاع التعليم بحاجة إلى دورات تدريبية للمعلمين ومعلمي المراحل الأساسية بالذات، وأن يمنحوا حقوقهم، فهي أمر مهم أيضا رغم أنها ليست ذريعة، وقال: "بعض المعلمين يجب أن يخضعوا للعلاج فالأمر تحول عندهم إلى مرض حقيقي"، وأضاف: "بعض المربين بحاجة إلى تربية".

مشاكل أم مبررات

في الميدان بدا أن مشاكل التعليم لا تعد ولا تحصى، المعلمون المقتنع معظمهم بجريمة الضرب يفضلون الحديث عن ظروفهم المعيشية والتعليمية وحقوقهم، لكن رأي المدرس أحمد المقطري شجعني على تجاهل كل ذلك.

المقطري (٣٤ عاما) الذي يدرس في الصفوف المتوسطة والثانوية منذ عشر سنوات قال: "يفترض ألا أحشر ظروفي في الأمر، ليس الطلاب مذنبين لأنتقم منهم"، من وجهة نظر المتخصص بتدريس الكيمياء أن المعلم الناجح قادر على تجاهل ما يدور خارج فصله.

بشكل مختلف يؤكد المقطري أن العصا ما زالت واحدة من وسائل التعليم رغم أن هناك من يحاول عدم استخدامها، وقال: "أحيانا يضيق المدرس ذرعاً فيلجأ إليها للسيطرة على صفه المكتظ بالطلاب".

رغم هذا لا يريد تبرير الأخطاء، كان أكثر شفافية، إن فشل المعلم في أن يغدو قدوة حسنة وقوية، ومؤثرة، وفشله في أن يغدو صديق الطلاب واحد من أهم الأسباب وراء كثير من المشاكل، وقال: "لا يمكن لوم الطالب الذي بدأ يفكر بالاعتداء على مدرسه.. لو كان المدرس قادراً على انتزاع احترام الطالب لما فكر الطلاب في ذلك".

وأضاف بصدق: "الطالب يعرف على من يعتدي".

إنه رجل ذو حديث واقعي، ولديه الكثير من الأفكار الجيدة، وبشكل مرض كان يجد علاقة تربط الأشياء ببعضها حين أخبرنا أننا ربما خرجنا عن الموضوع، فهو يرى أن غياب تأهيل المدرس أول أسباب فشله، إنه متأكد بأن كليات التربية في بلادنا لا تؤهل معلمين ذوي قدرات خاصة.

كان أكثر ما يجعل حديثه مثاليا وجميلا اصراره عدم تحميل الطالب مسؤولية أي أخطاء يرتكبها المعلمون، وقال: "لقد جاءوا للدراسة، وإذا كانت سلوكياتهم سيئة فإن أول مهامنا تعديل هذه السلوكيات قبل تعليمه القراءة والكتابة".

لا ينسى مثل كل المعلمين أن ما يحصلون عليه من أجر، والظروف المعيشية لهم لا تساعد على الإبداع، إنها واحدة من أعقد وأهم المشاكل التربوية في اليمن، رغم هذا يرى أن التصرف بعدم مسؤولية نتيجة ذلك أمر غير مبرر.

في مدرسة

في قلب صنعاء كانت أماني عبداللطيف القرماني (ست سنوات) في سنتها التعليمية الأولى تحمل عصا معلمتها لأنها "رئيسة الفصل"، وبعد خلاف مع زميلاتها يردن ولا يردن التحدث قررت: "أيوه المدرسات يضربونا". زميلتها سميرة الحوثي قالت أن الاستاذ الذي يضرب